زينب الكبرى
من المهد الى اللحد

السيد علي آل مكي العاملي

ابوها علي (ع) . وامها الزهراء ولدت بالمدينة المنورة في الخامس من شهر جمادي الأولى في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة وكانت ولادتها في حياة جدها النبي (ص) . وهو الذي سماها زينب كما تشير إليه الروايات .

وتعد زينب من عظيمات النساء قدراً ومنزلة وجلالة ومكانة وزهادة وعبادة وفضلاً وعلماً فقد نشأت عليها السلام في احضان النبوة . وتغذت من لبان الوحي . من ثدي الزهراء عليها السلام . وتربت في ظل الامامة ورعايتها . ونهلت من فيضها الزاخر . ونميرها العذب على يد أمير المؤمنين (ع) فكانت محاطة بالفضل والقدسية والروحانية . والادب والكمال من كل جهاتها . وفي غالب ادوارها . فكان من الطبيعي ان تنشأ النشأة التي تليق بها كمالا وفضلاً وعلماً واجتهاداً وورعاً وزهداً وعبادة وصلاحاً حتى باتت من اعاظم النساء وافضلهن لا يضاهيها أحد من النساء إلا امها الطاهرة الكريمة التي فضلت على نساء العالمين من الأولين ، وسيأتي ما يشير الى هذا المعنى من أخبار شرفها ومجدها .

زينب عليها السلام عريقة في الشرف ـ والنسب والمجد . ويكفي دلالة على ذلك ما قاله رسول الله (ص) . ـ كل بني ام ينتمون الى عصبتهم إلا ولد فاطمة فأنا ابوهم وعصبتهم .

وفي حديث آخر عنه (ص) . قال : ان الله عز وجل جعل ذرية كل نبي من صلبه ، وإن الله جعل ذريتي في صلب علي بن ابي طالب .

فانتسابها الى الرسول . وان ابوها وجدها . منتهى الشرف والنسب . والفخر . والمجد ولذلك لم يعرف احد اعلى شرفاً وأكبر مجداً من آل الرسول (ص) .

مكانتها

وكانت لها مكانة جليلة ومنزلة رفيعة وفضل كبير بين اخوتها وبني هاشم . ولقد ورد في بعض الاخبار ان الحسين (ع) كان اذا زارته زينب يقوم لها اجلالاً . وكان يجلسها في مكانه .

ولقد ورد التصريح بمكانتها وفضلها على لسان جدها الأكرم النبي (ص) . روى حذيفة قال : اني رأيت رسول الله (ص) وسمعته بأذني وقد جاء الحسين بن علي (ع) على المنبر : فجعله على منكبيه . ثم قال ايها الناس هذا الحسين خير الناس جداً وجدة جده رسول الله (ص) سيد ولد أكرم وجدته خديجة سابقة الى الايمان من كل الامة : وهذا الحسين خير الناس خالاً وخالة . خاله القاسم وعبد الله . وابراهيم ـ وخالته زينب ورقيه . وام كلثوم . وهذا الحسين خير الناس عماً وعمه . عمه حمزه وجعفر وعقيل وعمته ام هاني . وهذا الحسين خير الناس أباً وأماً واخاً واختاً . ابوه علي . وامه فاطمة واخوه الحسين واخته زينب ورقيه . ثم وضعه على منكبه فأجلسه في جنبه فقال ايها الناس هذا الحسين جده في الجنة ، وجدته في الجنة ، واخواله في الجنة ، وخالاته في الجنه ، واعمامه في الجنة . واختاه في الجنة وهو في الجنة . ثم قال ايها الناس إنه لم يعط احد من ذرية الانبياء الماضيين ما اعطي الحسين بن علي ، خلا يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم . يا ايها الناس إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهبن بكم الاباطيل(١) .

فهذا الحديث دليل واضح على ما لها من المكانة والمنزلة الرفيعة والشرف الباذخ والمجد السامي .

ومما يؤكد عظيم مكانتها وجليل منزلتها ورفيع قدرها ان الحسين (ع) كان قد عهد اليها في حفظ العيال والاطفال والقيام بشؤونهم بعد قتله .

وكذلك أوصى لها في الظاهر في ابلاغ الاحكام والعلوم والمعارف والاجوبة على المسائل . وان كان الواقع هذا يخرج عن الامام زين العابدين . وما ذاك إلا محافظة على الامام عليه السلام . وستراً عليه من كيد الاعداء وطغيان بني امية الذين تمادوا في ظلم أهل البيت . والاعتداء عليه بكل اسلوب وتذرعوا لذلك بكل وسيلة ولكي لا تنقطع آثار الامامة عهد الى زينب بالقيام بالمهمات الدينية والشرعية وهي تتلقى العلوم من الامام زيد العابدين بن علي ، وهذا فيه من التأكيد على جلالة قدرها مالا يخفى على لبيب وفطن .

(١) النقدي · زينب الكبرى / ٢٣ .

علم زينب

وبما ذكرنا يتضح لك مقامها العلمي . وما كانت عليه من المعرفة الشاملة الواسعة . فهي قد نشأت في مدينة العلم النبوي . وتربّت على ابوابها العلية العلوية . وتغذت بفيض لبانه الفاطمي . وعاشته في صحبة اخويها الحسن والحسين . حتى باتت مستودعاً للعلم الحاضر والغابر وقد اسلفنا ان الحسين (ع) عهد اليها بابلاغ الشيعة والموالين العلوم والمعارف وما يحتاجون اليه . وكانت هذه العلوم تخرج من الامام زين العابدين عليه السلام .

ويؤكد مقامها العلمي الرفيع ومنزلتها العلمية الواسعة . وشأنها الواسع في المعارف قول الامام زين العابدين (ع) لها : (وانت بحمد الله عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة) فهذه العبارة دلالة كبيرة ومهمة في التأكيد على علمها وسعة معرفتها وان هذه العلوم التي لديها ليست كسبّية شأن الناس الذين يتعلمون والفقهاء والعلماء الذين يأخذون العلم عن بعضهم البعض . وانما هي في ذلك شأن ابائها الطاهرين في علومهم وان كانت دونهم . ولا غرابة ان يكون شأنها العلمي كذلك فمن كانت على هذه الدرجة من الايمان والكمال . والسمو الروحي والتهذيب الاخلاقي والذاتي . كيف لا تصل الى درجة الالهام وتحصل لها المعرفة بواسطته . وان تنال من الفيض الالهي في المعرفة والعلم ما تمتاز به عن غيرها وتسمو الى المقامات العالية المراتب الفائقة بحيث لا يضاهيها أحد سوى الائمة الاطهار معدن العلم ومستودعه .

فالذين يعيشون الرياضيات النفسية العالية ويدأبون على العبادات الحقيقية التي تتمحص الله بالاخلاص الصحيح والصفاء والتوجه الصادق . تشرق نفوسهم بالمعارف وتتفجر الحكمة من قلوبهم وعلى السنتهم ، كما ورد في الحديث الشريف : «من اخلص لله اربعين صباحاً انفجرت الحكمة من قلبه على لسانه» .

وورد ايضاً في الحديث الشريف ما مضمونه :

«ليس العلم موجوداً في السماء حتى ينزل اليكم ولا هو موجود في الارض حتى يصعد اليكم . وانما هو موجود في انفسكم فتخلّقوا باخلاق الروحانيين» .

وزينب ممن سمت بالعبادة الحقيقية وتمحضت لله سبحانه وتعالى في كل امورها وشؤونها سمواً وتمحضاً واخلاصاً صادقاً لا يفوقها فيه إلا الائمة الطاهرون او إلا المعصومون . فكيف لا تكون ملهمة في العلم والمعرفة .

وللتأكيد على مالديها من علم نذكر ما أُثر عنها .

١ ـ روى الصدوق ابن بابويه ان زينب كانت لها نيابة خاصة عن الحسين . وكان الناس

يرجعون اليها في الحلال والحرام حتى برىء زين العابدين من مرضه .

٢ ـ جاء في كتاب الخصائص الزينبية ان زينب كان لها مجلس تفسير للقرآن في بيت ابيها في الكوفة تجلس اليها النساء وتفسر لهن القرآن .

٣ ـ ولقد روت خطبة امها الزهراء . التي احتجت فيها في شأن فدك . وقد روى ابن عباس هذه الخطبة عن زينب (ع) .

عبادتها

زينب عليها السلام من العابدات القانتات والمعروفات بذلك . فقد كانت عبادتها غاية في العبادة بعد آبائها الطاهرين . واخويها سلام الله عليهم اجمعين . ذلك لأن العبادة هي التمحض لله والانقطاع والخضوع لله سبحانه وعلى قدر المعرفة بالله يتسامى الانسان في عبادته وفي خضوعه وخشوعه لله تعالى . فكلما كان الانسان أبعد واعمق واعرف بالله كانت عبادته اعمق وابعد .

وزينب عاشت آفاق المعرفة الصحيحة والدقيقة والشاملة واجواء الروحانية والقدسية . في ظل اخويها وامها وابيها وجدها صلوات الله عليهم اجمعين . وتربت عليها في جميع جهاتها وانحائها . وهم عليهم السلام العابدون الحقيقيون بكل مراحلها واعتباراتها . واهل العبادة هم . وهم منبعها وطريقها وبهم يعرف ويستدل ، فكيف لا تكون زينب على نهجهم وطريقتهم فيها . ولذلك ما تركت زينب العبادة في احلك الأوقات . واصعب الحالات وأمضى الآلام والمحن . وهل هناك محنة اشد واصعب وآلم من محنة كربلاء . التي واجهت زينب فيها ما لا يمكن ان يتحمله انسان آخر مهما بلغ من قوة التحمل والصبر .

ورغم هذا لم تنقطع زينب عن عبادتها ونوافلها . وتلاوة كتاب الله . فليلة العاشر وهي اشد الليالي واصعبها واخطرها وأمضها . حيث تعلم بالمصير الذي يجري على اخيها الحسين وعلى أهل بيته وابنائه واخوته . واصحابه . وتحوط بها المتاعب والمخاطر من كل الجهات . ومع ذلك لم تزل قائمة راكعة ساجدة . تالية القرآن صابرة محتسبة . بل في ليلة الحادي عشر من المحرم تلك الليلة التي قامت بها بحفظ العيال والاطفال وتولت حُراستهم والمهمات الاخرى التي القيت على عاتقها وعهد الحسين عليه بها اليها . ومنها المحافظة على الامام زين العابدين. التي تعني المحافظة على الامامة . التي عهد الله لعباده . مع هذا الحال لم تترك عبادتها . وما يترتب عليها من صلوات ونوافل . بل وهي في طريق الاسر الى الكوفة ثم الى الشام لم تترك العبادة .

فكيف يكون شأن هذه الانسانة في العبادة . وهل لا يصح القول بأنها في عبادتها فاقت العباد ما عدا الائمة الطاهرين والمعصومين الطيبين . انها قطعاً دون المعصومين عبادة . ولكنها حكت درجة الاوصياء في العبادة وفاقت العارفين والمجتهدين والعابدين من أهل الصلاح والدين والاتصال بالله والتمحض لله . فلا عجب أن نقول عن عبادتها أنها غاية العبادة .

كراماتها

ينقل الثقات من العلماء والصلحاء والمؤرخين اخباراً كثيرة من كراماتها . واستجابة دعائها . وهذا ليس بغريب على مثل زينب . فإن الله سبحانه اعطى لمن هو دونها من الفضل والتقوى . والورع من الكرامات ما يبهر العقول ويحير الألباب فكيف لا يكون لها ذلك .

فإن العبد بطاعته لله سبحانه . وتمحضه له بالاخلاص والانقياد والتجرد توصل الى الكثير من الخوارق . التي يؤكدها الخبر الشريف «عبدي اطعني تكن مِثْلي أو مَثَلي أقول للشيء كن فيكون فبقدر الله وتسخير الله واكرام الله يصل العبد الى المراتب العالية وزينب سليلة النبوة وفرع الامامة والتي كانت متمحضة لله في كل حركاتها وسكناتها وافعالها واقوالها . لا يعقل ان يكون عبثاً ما روي لها من كرامات . وقد تعرض لذكر وتعداد الكرامات السيد نعمة الله الجزائري في الانوار النعمانية . والشيخ النوري في كتابه دار السلام . وغيرهما من ارباب المقاتل .

صبرها

تكنى زينب بأم المصائب . وذلك لصبرها وتحملها لما جرى عليها وواجهته من المحن والمصائب . والآلام الفادحة والنوائب الجليلة .

والصبر من ابرز صفاتها وخصائصها ومكارمها والتي اشتهرت وعرفت به . وبرغم ان هذا ليس غريباً عنها لأنها من أهل البيت . الذين كانت الفضائل والمكارم والكمالات . والخصائص الروحية والمميزات القدسية من ذاتياتهم . ومن الأمور المتأصلة في ذواتهم إلا أن صبرها . برغم ذلك كان نموذجاً . لا يرتقي اليه إلا من أوتي حظاً عظيماً من الهدى والايمان .

وزينب هي النموذج الاسمى في الصبر . لقد واجهت وعاشت المصائب . من طفولتها وايام صباها . بل لازمتها المصائب والمحن كأنها واياها قرينان . حتى سميت بأم المصائب ، لقد

فقدت جدها الرسول الكريم وفقده مأساة عظيمة لأن وجوده كان حياة للمسلمين . وفقدت امها الزهراء البتول وفقدها ايضاً مأساة . لأنها كانت عنوان الطهر والفضل والعصمة وهي سيدة النساء .

وفقدت اباها أمير المؤمنين وعاشت مأساة شهادته في محرابه بين مناجاته وصلاته . وامير المؤمنين سيد الأولين والآخرين بعد رسول الله ووجوده بركة للعالمين . وفقدت أخاها الحسن وعاشت محنة شهادته وظروفها القاسية . وهي تنظر اليه يعاني من السم الزعاف الذي سقيه .

ثم جاءت كربلاء ومحنتها الشديدة فهي اشد المحن ، واشد المصائب ، واقسى النوائب ، وافجع الحوادث عليها ، لقد شهدت تلك المحنة وآلامها التي تهد الجبال الرواسي والتي تسيخ الارضون من هولها . قتل الحسين وابناءه واخوته وابناء عمومته واصحابه . بشكل وحشي . همجي بعيد عن الرحمة والشفقة فضلاً عن العادات والعرف والاخلاق التي كان يتعامل معها العرب فضلا عن الاسلام في حروبهم وقتالهم .

ثم عاشت محنة الأسر وذله. وعاشت ذل الوقوف بين يدي القتلة . وعاشت حقدهم . وشماتتهم ومرّ عداوتهم . وجبروتهم وطغيانهم . وصبرت على ذلك كله . وعاشت المسؤولية الكبرى ومهامها في حفظ العيال والاطفال . والقيام بواجبهم والقيام ايضا بواجب الوصية التي عهدها اليها اخوها الحسين .

كلها كانت مصائب مذهلة . ومحيرة للعقول ومحطمة للنفوس واجهتها كلها بكل رضى وتسليم وصبر واحتساب وايمان وشكر . بقوة جنان ورباطة جأش .

ولذلك كان صبر زينب صبر الانبياء . وصبر الأوصياء والأصفياء . وحتى ان الصبر عجز عن صبرها .

ولقد جسدت هذا الصبر بكلمات خالدة سطرتها على صفحات التاريخ ومسامع الاجيال وذلك لما جاءت الى قلب المعركة ونظرت الى جسد اخيها الطاهر . موزعاً مرضوضاً . ليس فيه موضع سالم . جلست اليه ووضعت يديها تحته قائلة «اللهم تقبل منا هذا القربان او القليل من القربان» .

انه اعظم تجسيد للصبر . لقد احتوت المأساة وظروفها اولها وآخرها . بهذه الكلمات . كما عبرت عن ايمانها وتسليمها لله والرضى بقضائه وقدره والرضا بما جرى عليها في سبيله .

فأيّ امرأة من الأولين والآخرين سوى امها الزهراء تضاهيها في هذا الصبر . وتحمل المحن والشدائد والاهوال تلك هي زينب في صبرها . وذاك هو صبر زينب في ضخامته .

اسفارها

السفر الأول

كان لزينب عدة اسفار الأول سفرها من المدينة الى الكوفة . وكان هذا السفر يوم نقل الامام علي عاصمة خلافته من المدينة الى الكوفة . والظاهر انها في سنة ست وثلاثين للهجرة . وكانت في غاية العز والمجد والجلالة والكرامة في سفرها هذا فقد كان معها ابوها واخوتها الحسن والحسين . ومحمد بن الحنفيه . والعباس . وكان معها زوجها عبد الله بن جعفر كما كان معها ابناء عمومتها عبد الله بن العباس . وعبد الله واخوتهما. وابناء عبد الله بن جعفر . وغيرهم من بني هاشم . وكذلك كان في ركب امير المؤمنين غيرهم من سادات العرب ورؤساء القبائل لأنه أمير المؤمنين كان في مقام نقل العاصمة للخلافة الاسلامية الى الكوفة حسب الدواعي والظروف التي كان يراها (ع) فكان من الطبيعي ان يتبعه الكثير من رجالات وسادات العرب وزعماء القبائل ولذلك كان موكب زينب موكباً مهيباً .

السفر الثاني

كانت مع اخيها الحسن (ع) بعد ان جرى الصلح بينه وبين معاوية واضطر الحسن للعودة الى المدينة والاقامة فيها . وطبيعي ان عودته كانت مع اهله واخوته وابناء عمومته وذريته وكانت زينب في هذا السفر في غاية العز والكرامة .

السفر الثالث

وكانت مع اخيها الحسن من المدينة الى مكة ومن مكة الى كربلا يوم نهض عليه السلام . ليواجه قوى الشرك والبغي والضلال والفسق من بني امية الذين كان يمثلهم يزيد واتباعه . وقد صحب الحسين معه أهل بيته من الرجال والنساء والاطفال . وكانت زينب في طليعة النساء . وكانت تسير في موكب فخم يحف بها الهاشميون يزأر على رأسهم صاحب اللواء ابو الفضل العباس . وما كانت تشعر بشيء من الهوان او الأذى سوى انها كانت تقرأه من مجاري الاحداث وما يصدر عن لسان اخيها الحسين(ع) من كلام وانها تسير الى مأساة .

السفر الرابع

وكان هذا السفر من كربلاء الى الكوفة ولم يكن معها احد من اهلها واخوتها الذين كانوا يحفّون بموكبها ويحرسونها في طريقها من مكة الى كربلاء ، وانما كان يحرسها الاعداء والطغاة . والعتاة من اتباع يزيد وكانت في موكب حزين وأليم لم تر فيه سوى الذل والهوان . والأذى والاسى . النساء والأرامل والايامى والاطفال اليتامى والعليل الحزين زين العابدين حولها ومعها في قيود واغلال كأنهم اسرى الروم أو الخزرج يركبون الجمال العجف بلا غطاء ولا وطاء .

وقد بلغ بها الهوان انها كانت تتحمل الضرب والأذى من قتلة اخيها الحسين . وسيقت الى اعتى الخلق واشد الفسقة والكفرة عبيد الله بن زياد .

السفر الخامس . .

وكان من الكوفة الى الشام . وهو من اطول الاسفار ومن اشدها واقساها عليها فقد أخذت سبية الى الشام ورؤوس القتلى تطوف بها ومن بينها رأس أخيها الحسين (ع) مخضب بالدماء وعلى رأس رمح طويل والنساء والايامى والاطفال واليتامى معها بحالة مزرية وقد قصد بهن السير في البلاد العامرة للتشهير بهنّ واظهار القوة امام الناس للحكم الأموي . ولذلك كان هذا الطريق طويلاً . وقد بدأ هذا الطريق من الكوفة ـ مروراً بالعباسيات ـ الحله ـ الى المدائن . ومنها الى الموصل . ومنها الى نصيبين ومنها الى حلب . ومنها الى حماه وحمص ، ثم ساروا بهم على طريق بعلبك باعتبار ان الطريق عامر بالسكان ، ثم جاؤوا بهم الى دمشق . .

والذي يؤكد هذا المعنى ما ذكره الخوارزمي في كتابه مقتل الحسين (ع) انهم ساروا بهم من بلد الى بلد ومن منزل الى منزل ويؤكده ايضاً وجود مقامات لرأس الحسين في عدة امكنة من تلك البلاد وما ذاك إلا بسبب مرور الموكب الحزين على تلك الاماكن .

السفر السادس

من الشام الى المدينة . وذلك بعد ان اقام السبايا في دمشق الشام اياماً وبعد الذي جرى ما جرى في دمشق من المواقف . والخطب التي القاها الامام زين العابدين وخطبة زينب عليها السلام في مجلس يزيد . وتنبه الناس الى ان هذا الفعل من الحكم الأموي جريمة نكراء . ولذلك انقلب الموقف رأساً على عقب ضد يزيد وغيّر الاتجاهات عند الناس وفي يزيد نفسه انه حاكم ظالم وباغ معتد على أهل البيت . وان ما كان يصوره للناس عن الحسين وأهل بيته كان ضلالاً وباطلاً .

اما خطبة زينب فقد اشعلت النار في قلوب الناس وأظهرت يزيداً بأنه كافر وان جريمته في قتل الحسين وأهل بيته وابناء عمه واصحابه جريمة لا تغتفر . وجريمة لا يمكن السكوت عليها . حتى خاف يزيد على ملكه وسلطانه وخشي الانقلاب عليها فاضطر لمهادنة أهل البيت واظهار الندم على ما وقع والتنصل من انه هو الذي قتل الحسين وانما قتله ابن زياد . وأمر باقامة مجلس للعزاء في بيته لأهل البيت ثم سيّرهم معززين مكرمين مخفورين . فكان مسير الموكب اولا الى العراق والى كربلا لتجديد العهد بالابرار الذين سقطوا على ارض التضحية والفداء . ثم ساروا الى المدينة . مدينة الرسول . التي خرجوا منها مع الأهل والأصحاب وعادوا اليها بلا أهل ولا اصحاب . وانما صحبوا الأسى والألم .

زينب في الشام

ولابد من ذكر المامة عاجلة وسريعة بالذي جرى على اهل البيت (ع) في الشام : لأن هذا الموقف وغيره من المواقف التي وقفتها زينب ، كانت مرحلة مهمة في ابراز الاهداف السامية التي ارادها الحسين ، كما انها ايضا عامل هام للتعرف على ظلم وكفر بني أمية . وان تحركهم ضد الحسين لم يكن ضد الحسين فحسب وانما كان يستهدف تحركاً ضد الدين والاسلام ككل .

اذ من الواضح ان أمية لم تكن لهم أية صلة بالدين اطلاقاً اول الامر . ومن اللحظات الأولى التي اعلن ابو سفيان فيها التظاهر بالاسلام .

ومن هناك كانت بداية المؤامرة الأموية على الدين حيث تكون الحزب الأموي متستراً بالدين ومتخذاً من الاسلام وسيلة لتحقيق مآربه . ولقد استطاع الامويون ان يواكبوا مسيرة الاسلام بكل دقة وحذر ، حتى كانت اللحظات الحاسمة التي تسلم الامويون الخلافة فيها . عندها كشف الستار وابرزوا النوايا وتحدثوا بكل صراحة عن الاهداف فلم يكن قصدهم سوى الملك والوصول الى سدة الحكم ـ ثم تحطيم الدين من خلال ذلك ، وقد اعلن زعيمهم أبو سفيان بكل وضوح وصراحة وطرحه عن هذه النوايا بقوله : تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة فو الذي يحلف به ابو سفيان لا جنه ولا نار .

ثم اعلن ابنه معاوية بصراحة اكثر في خطبته في الكوفة بعد الصلح مع الحسن :

«والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتحجّوا قاتلتكم لأتآمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون» .

فالدين والاسلام والحق والعدل امور جانبية ثانوية مرفوضة من قبلهم تماماً . وهذا يكشف عن النية المبيتة للامة .

اما يزيد فقد أنكر الدين تماماً بقوله :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وعلى سيرته جرى الذين تعاقبوا على الملك من بعده من بني امية ، قتلاً وتهديماً للدين .

فموقف زينب يحكي هذه الفصول تماماً سواء في الكوفة . او في الشام ، وتحدد المقاصد ، كما انها تحدد مسؤوليتها اتجاه الدين واتجاه ما يجري ضده ، ولذلك انبرت بخطبتها المؤرخة في الشام وكانت وثيقة تاريخية مهمة في كشف الحقائق وابراز النوايا الاموية وتحديد موقف الناس من الدين ومن اهل البيت واتجاههم نحو الملك .

لما سير اهل البيت (ع) من الكوفة الى الشام ضيق على اهل البيت غاية التضييق ، وكان الهدف اظهار القوة للسلطة الاموية من ناحية ، والانتقام والتشفي من اهل البيت من ناحية أخرى ، ولذلك كان الاسلوب الذي استعمله اتباع يزيد وجيشه وحشياً وقاسياً بنحو لم يسبق له مثيل في التاريخ الاسلامي وكأن القوم ليسوا بابناء رسول الله (ص) ولا يمتون اليه بصلة اطلاقاً ، هذا وهم يجلسوه مجلس رسول الله (ص) ويحكمون باسمه .

فقد سيروا على ابل عجف بلا غطاء ولا وطاء يرسفون في الاغلال الثقيلة التي تشد الايدي الى الاعناق . حتى ادخلوا الى الشام بأزرى هيئة وأوحش حال وادخلوا الى مجلس يزيد وهم مربطون في الحبال بعضهم الى بعض ـ وجيء برأس الحسين (ع) وهو موضوع بطشت من ذهب ، وأخذ يزيد يضربه بعود من خيزران وهو يتمثل ويقول :

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لاهلّوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يايزيد لاتشل
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

هنا جاء دور زينب الرسالي ومهمتها الاساسية في كشف الحقائق وايضاح الواقع للناس ، لقد كان المجلس غاصاً بالناس وعلى مختلف الطبقات فلا مجال للسكوت ، ولا مجال للمهادنة . ولا مجال لاستمرار التمويه الاموي للحقائق وافساد الافكار والنفوس بالدعايات الاموية ، وقفت سلام الله عليها : وبدون سابق انذار ولا استئذان ولا طلب وقفت قائلة :

«الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على رسوله وآله اجمعين صدق الله سبحانه حين يقول : «ثم كان عاقبة الذين اساؤا السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن» . أظننت يا يزيد حيث اخذت علينا اقطار الارض وآفاق السماء ، فاصبحنا نساق كما تساق الاسراء . ان

بنا هواناً على الله ربك . وان ذلك لعظيم خطرك عنده تشمخت بانفك ونظرت في عطفك ، تضرب أصدريك فرحاً وتنفض مذوريك مرحاً ، جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسعة والامور متسعة ، وحتى صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً . انسيت قول الله تعالى «ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيراً لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً . ولهم عذاب مهين» امن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك واماثك وسوقك بنات رسول الله (ص) سبايا قد هتكت ستورهن وابديت وجوهن ، تحدوا بهن الاعداء من بلد الى بلد ويستشرفهن اهل المناهل ، والمناقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والمدني والشريف ـ ليس معهن من رجالهن وليّ ولا من حماتهن حميّ . وكنف يرتجى مراقبه ابن من لفظ فوهُ اكباد الاذكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا اهل بيت من نظر الينا ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنياً على ثنايا ابي عبد الله سيد شباب اهل الجنة تنكثها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة باراقتك دماء ذرية محمد (ص) ونجوم الأرض من آل عبد المطلب وتهتف باشياخك . زعمت انك تناديهم ، فلترون وشيكاً موردهم ولترون انك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت . اللهم خُذلنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا واحلل غضبك بمن سفك دمائنا وقتل حماتنا فوالله يا يزيد مافريت الا جلدك ولا فرزت إلا لحمك ، ولتردن مع رسول الله بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت حرمته وعترته ولحقته حيث يجمع الله تعالى شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون» . وحسبك بالله حاكماً وبمحمد (ص) خصيماً وبجبرائيل ظهيراً ، وسيعلم من سول لك وامكنك من رقاب المسلمين . بئس للظالمين بديلا . وايكم شر مكاناً واضعف جندا . ولئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك اني لاستصغر قدرك واستعظم تقريعك ، واستكثر توبيخك . لكن العيون عبرى والصدور حرى ألا فالعجب كل العجب تقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتنابها العواسل وتعفرها امهات الفواعل . . ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدن وشيكا مغرماً حين لا تجد الا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد والى الله المشتكى ، عليه المعول فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك . فو الله لا تمحوا ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك امدنا ولا تدحض عنكَ عارها وهل رأيك الا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد ألا لعنة الله على الظالمين . والحمد لله رب العالمين الذي ختم

لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة انه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل .

لقد اوضحت كل شيء في الخطبة العظيمة من الواقع الاموي وكشفت عما تخفيه النوايا وعما تنطوي عليه النفوس الاموية . من الحقد والعداء لهذا الدين وانهم ما اتخذوه الا وسيلة .

ولقد كان لهذه الخطبة من زينب أثر بالغ في نفوس الحاضرين وعقولهم وضمائرهم ، لقد اثارت البلبلة واشاعت الاضطراب . فأهل الشام برغم انهم كانوا ينظرون للأمويين نظرة الولاء والتقديس والتعظيم الا أنهم ما ان سمعوا من زينب هذه المقالة والخطبة العظيمة حتى أخذ الوضع يتغير عند يزيد والتساؤل يكثر حول مصرع الحسين (ع) الامر الذي اضطر يزيد ان يغير من معاملة اهل البيت (ع) وينصب لهم مجلس العزاء ويعاملهم بالحسنى ثم يسيرهم الى المدينة مكرمين ولكن صدى الحق كان قوياً لم ينفع معه اي شيء ودماء الشهداء من اهل البيت كانت نيراناً وحمماً ترمي الظالمين بشرورها .

وفاتها ـ ومحل دفنها

وفاة زينب

والحديث عن محل مدفنها حديث يكاد يكون من اعقد الأمور والمسائل التاريخية بل لم أجد اضطراباً وقلقاً تاريخياً في موضوع كما وجدته في هذا الموضوع ، واني لأوعز ذلك الى السياسة الاموية التي كانت تتبناها في حربها ضد اهل البيت عليهم السلام . وضد الدين الاسلامي فلم يكن هذا الأمر . وهذا الموضوع ليسلم من التأثيرات السياسية الاموية خصوصاً وأن زينب من الشخصيات التي لها أثرها وفعاليتها في ذلك الوقت وهي تمثل القوة المناوئة للحكم الاموي وعلاقة الناس بأهل البيت . وزينب في تلك المرحلة كانت تشكل خطراً كبيراً على الحكم فلم يكن منه الا ان هذا العناء الكبير من التحقيق والتوفيق . والاخذ والرد في هذا الموضوع اطلاقا فنحن امام قضية واحدة وهي ان زينب العقيلة هل هي مدفونة في الشام ؟ أم هي مدفونة في مصر ؟ هذا بعد نفينا أنها مدفونة في مكان آخر سواهما . وبعد أن ننفي ان المدفون فيها غيرها ـ ومع هذا التحديد لابد لنا أن ننظر في ادلة القولين ونبدأ بأدلة القول الذي يتبنى انها مدفونة في مصر . وعمدته ما ذكره العبيدلي :

ان زينب الكبرى بعد رجوعها من اسر بني أمية ، الى المدينة أخذت تؤلب الناس على يزيد بن معاوية فخاف عمرو بن سعد الاشدق انتقاض الامر فكتب الى يزيد بالحال فأتاه كتاب يزيد بأمره ان يفرق بينها وبين الناس فأمر الوالي باخراجها من المدينة الى حيث شاءت فأبت الخروج من المدينة وقالت : قد علم الله ما صار الينا قتل خيرنا وسُقنا كما تساق الانعام وحملنا على الاقتاب فو الله لا أخرج وإن احرقت دماؤنا فقالت لها زينب بنت عقيل : يا ابنة عماه قد صدقنا الله وعده واورثنا الارض نتبؤ منها حيث نشاء فطيبي نفساً وقري عيناً وسيجزي الله الظالمين . اتريدين بعد هذا هواناً . ارحلي الى بلد آمن .

ثم اجتمع عليها نساء بني هاشم وتلطفن معها في الكلام فاختارت مصراً ـ وخرج معها من نساء بني هاشم فاطمة ابنة الحسين وسكينة ، فدخلت مصر لأيام بقين من ذي الحجة فاستقبلها الوالي ـ مسلمة بن مخلد الانصاري ـ في جماعة معه فانزلها داره بالحمراء فاقامت به احد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً وتوفيت عشية يوم الاحد لخمسة عشر يوماً مضت من رجب سنة اثنتين وستين هجرية . ودفنت بمخدعها في دار مسلمة المستجدّة بالحمراء القصوى حيث بساتين عبد الله من عبد الرحمن بن عوف الزهري انتهى عن كتاب زينب الكبرى للنقدي ص ١٥ .

هذه عمدة الروايات التي يعتمدها القائلون بانها مدفونة في مصر . وهذه الرواية جمعت باقي الروايات الاخرى التي رويت متفرقة فبعضها ذكر من خرج معها من نساء هاشم ـ وبعضها ذكر الجهة التي سار اليها وهي مصر . وبعضها ذكر استقبال والي مصر لها ـ وبعضها عددت المكان الذي نزلت فيه والوقت الذي توفيت فيه ، ولكن الرواية لاتخلو من مناقشة . وهي من جهات :

أولاً : السند

فالسند : قال حدثنا زهران بن مالك : قال : سمعت عبد الله بن عبد الرحمن العتبي يقول حدثني موسى بن مسلمة . عن سهيل بن الفضل عن علي بن موسى قال : اخبرني قاسم ابن عبد الرزاق وعلي بن أحمد الباهلي : قالا : اخبرنا مصعب بن عبد الله .

ورجال السند كلهم لم يعرف احد منهم بالوثاقة بل عرف عنهم بالعداء والتحامل على اهل البيت مثل مصعب بن عبد الله بن ثابت الاموي من قبل وما كان لينطلي على زينب (ع) وهي

العالمة الغير معلمة والفهمة غير المفهمة . وتعرف انه ابن الزبير لا يبتغي ديناً ولا يقول صدقاً . وليس هي بحاجة ايضا ان تستغل مثل هذه الثورة المزعومة لأنها بمفردها وبعيداً عن اي تجاه آخر عن تحريك القوى ضد يزيد والحكم القائم .

وثانياً : ان هذه الحادثة ونفي زينب لم يشتهر ولم تعرف بين المؤرخين اطلاقاً ولم تنقلها سوى هذه الرواية فقط مع ان قضية الطف ومقتل الحسين والاحداث المحيطة بها والتي رافقتها والتي نبحث عنها ـ بل كل تحركات اهل البيت عليهم السلام ومواقف السلطة منهم . بل ان الاوضاع السياسية ضد الحكم الاموي نتيجة قتل الحسين . كانت محل اهتمام واستغلال الناس فكيف يخفى هذا الامر على الناس وعلى المؤرخين ولم يذكر احد منهم شيء من ذلك . فلو كانت زينب منفية الى مصر كما ذكر او الى أي مكان آخر لما خفي على الناس ولا على المؤرخين الذين يتتبعون هذه الاحداث والامور بكل دقة فلم يذكروا ان كان حادثاً وواقعاً .

وثالثاً : التناقض في موقف زينب عليها السلام فهي تحلف بعدم الخروج من المدينة حتى ولو هرقت الدماء . ثم بعد ذلك تعدل عن المتحاملين والمعادين لعلي . وللتأكد يراجع في ذلك كتب الرجال ، على ان وجود من هو موثوق من الرجال في السند لايجري ايضا في اعتبار الرواية ما دام فيها هذا العدد من المجاهيل بل يكفي في عدم حجية الرواية وعدم اعتبارها وجود واحد مجهول أو ضعيف ـ فالرواية ساقطة عن الحجية ـ ولا اعتبار قطعاً .

ومما يؤيد هنا : أن هذه الرواية ومضمونها لم تعرف بين المؤرخين والعلماء من أمثال السيوطي ومن تأخر عنه .

وأما من حيث المضمون :

فالرواية يرويها صاحب أخبار «الزينبيات» :

ان زينب بنت علي كانت تؤلب الناس على الأخذ بثأر الحسين (ع) فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة وحمل الناس على الأخذ بثأر الحسين وخلع يزيد بلغ ذلك اهل المدينة فخطبت زينب فيهم وصارت تؤلبهم على القيام للأخذ بالثأر . انتهى .

هذه الفقرة تبين ـ التلفيق في الرواية فعبد الله بن الزبير المعروف بعدائه لأهل البيت والذي كان يتمنى ان يقتل الحسين ليخلو الجو ويصفو له الأمر ما كان يهمه الأخذ بثأر الحسين (ع) فما كان هذا الموقف وتختار مصر إن هذا الموقف لا يقبل ممن هو دون زينب فكيف بصدوره من زينب وهي الانسانة الحكيمة فهي عندما تقول لن أخرج فإنها تعني ما تقول وانها حددت موقفها من الوضع القائم من الحكم الأموي . فلا يمكن ان تغير موقفها بهذه السهولة . خصوصاً وانها في هذه الفترة بالذات كانت معنية بالأمر وكانت تصدر عنها الاحكام والفتاوى وما فيه تدبير

شؤون الناس ظاهرة وفي الواقع تصدر عن الامام زين العابدين . فلا يمكن أن تتخذ موقفاً مناقضاً أو منفرداً من دون مراجعة الامام زين العابدين عليه السلام ولا يمكن أن يكون موقفها موقفاً عبثياً .

ورابعاً: كيف لا يكون لزوجها عبد الله بن جعفر موقف أو رأي وكيف يمكن ان يترك زوجته تسير الى مصر ويسكت . وهل يسمح له موقفه الشرعي والعرفي ان يسكت على هذا ولم يعرف انه تكلم ولم يعرف ان احداً عارضه . بل لم يذكر عنه شيء اطلاقاً في هذا الموضوع وكأنه لا صلة له بالأمر فلو كان النفي واقعاً لم لم يذكر عنه شيء . انه امر يثير الشك والريبة فضلا عن التساؤل في ان النفي الى مصر أمر لا واقع له .

ومهما يكن من امر فالرواية التي يرويها العبيدلي بعيدة عن الصحة والاعتبار للوحدة التي ذكرناها ولغيرها مما يمكن ان يستنبطه الحاذق العارف بالاخبار .

ومع سقوط هذه الرواية يسقط القول بأن زينب مدفونة في مصر لعدم الدليل على ذلك . كما ان الدليل على انها مدفونة في المدينة غير ثابت ايضا لأن القول بدفنها بالمدينة غير معروف . يبقى القول بدفنها في دمشق الشام . في قرية راوية هو الارجح والمعتمد لأمور ١ - ان هذا الرأي والقول هو المشهور بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم والمتسالم عليه عندهم . ومن المسلمات لديهم ويقصدون هذا المقام من اقاصي البلاد والاماكن النائية وعلى طول السنة يطوفون به تعظيماً وتكريماً لآل البيت عليهم السلام ويتضرعون الى الله لديه بنجح مطالبهم وقضاء حوائجهم .

ولاشك ان الشهرة والتسالم من اهم الادلة التي نعتمد عليها في اثبات الاماكن المقدسة واماكن العبادة والمساجد ومدافن العلماء والاولياء والابرار والصلحاء . ولولا الشهرة والتسالم لم يكن بالامكان اثبات مكان منها بصورة قطعية ولتطرق الشك اليها .

٢ ـ توافد العلماء وعلماء الشيعة بالذات من جبل عامل الى الشام واتصالهم بعلماء السنة وغيرهم . فلو كان هذا الامر غير ثابت لديهم ، وكان فيه ادنى شك لذكروه ، وبينوا موقفهم منه . وليس من الصحيح ولا من المشروع ان لا يبينوا الحقيقة والحق بالنسبة لهذا المقام وهو محل اهتمام المسلمين وعنايتهم . مضافاً الى ذلك أن هذا المقام تترتب عليه آثار شرعية ومتعلق لبعض الاحكام . مثل الاوقاف للمقام . والنذورات . وبذل الاموال احتساباً وتقرباً الى الله سبحانه . ومحبة أهل البيت (ع) والوصايا لهذا المقام وغير ذلك .

٣ ـ الوقفية الموجودة عند آل المرتضى اعزهم الله واكرمهم وقد كان جدهم الأكبر في اوائل القرن السادس الهجري . وكان قد اوقف املاكه على هذا المقام الشريف . وانه مقام زينب

الكبرى . واشهد عليه وتجد شهادات العلماء . الكبار من علماء السنة على هذه الوقفية وعلى ان المقام هو مقام زينب الكبرى . وعندي نسخة من هذه الوقفية .

٤ ـ مما يؤيد ذلك ذكر هذا القبر والمقام لزينب على السنة المؤرخين الكبار مثل ابن عساكر وغيره . لأنه لم يرد في كتب السير والتاريخ التعبير عن ام كلثوم بزينب وانما كان هذا اللقب خاص بزينب العقيلة . لأن ام كلثوم كما هو الثابت عند المؤرخين قد تزوجها عمر وتوفيت هي وابنها عبد الله في ايام عمر . ومنهم من يقول انها توفيت في اواخر خلافة معاوية قبل واقعة كربلا بمدة . فقطعاً ليست هي المعنية بأم كلثوم التي امها الزهراء عليها السلام . واما زينب الصغرى والمكناة بأم كلثوم فلم يعرف ان لها دوراً في كربلا أو انها وقفت موقفاً وتكلمت فيه ولا قرينة تدل على ذلك الأمر الذي يؤكد ان المقصود بأم كلثوم في كل المواطن والمواقف . هي زينب الكبرى العقيلة .

وأخيراً فان عمدة ما يمكن ان يستدل به على ان هذا المقام لزينب الكبرى العقيلة وانها مدفونة في دمشق في قرية راوية هو التسالم والشهرة مضافاً الى شهادات العلماء الكبار وامضائهم وار.جاعهم الوجوه الشرعية من نذور وصدقات واوقاف ووصايا وغير ذلك الى هذا المقام . مؤكداً بما ذكره المؤرخون . الأمر الذي يوجب الاطمئنان بأنها مدفونة في راوية الشام . بل يوجب القطع بذلك . ولقد شاءت الحكمة الالهية ان تكون زينب في دمشق الشام عاصمة بني امية . ليعلم الناس ان الأمر كله لله سبحانه وان العاقبة للمتقين .

☆ ☆ ☆

العلماء ورثة الانبياء

«العلماء ورثة الانبياء ، وذلك ان الانبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وانما ورثوا احاديث من احاديثهم فمن اخذ بشيء منها فقد اخذ حظّاً وافراً وان فينا اهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.»

«الراوية لحديثنا يشدّ به قلوب شيعتنا افضل من الف عابد»

الامام جعفر الصادق عليه السلام

«وما احسبني اغلو أو اسرف ، اذا زعمت ان موقف السيدة زينب بعد المذبحة ، هو الذي جعل من «كربلاء» مأساة خالدة !»

بنت الشاطىء



